أسرى الحاضر: لماذا التاريخ مهم؟

رشيد الخالدي
حرب المائة عام على فلسطين
تاريخ الاستعمار الاستيطاني والمقاومة 1917-2017
نيويورك: متروبوليتان بوكس، 2020
336 صفحة (بالإنجليزية)

قراءة: رنا بركات

يستخدم رشيد الخالدي في كتابه **حرب المائة عام على فلسطين: تاريخ الاستعمار الاستيطاني والمقاومة، 1917-2017** [1] أسلوبه وصوته المعهودين لتقديم تاريخ متماسك للغزو والاحتلال الاستعماري في فلسطين. ومن خلال تأطير الكتاب وفصوله الستة التي يرِد كل منها كـ"إعلان حرب"، يشرح الخالدي كيف تطور القرن الاستعماري في فلسطين مع مرور الوقت، وكيف تطورت معه السياسة الفلسطينية. وعلى الرغم من السمة التاريخية والأكاديمية لهذا الكتاب، إلا أنه يعتبر محاولة لتقديم سردية متماسكة عن فلسطين للجمهور العام. كما يعتبر هذا الكتاب، شأنه شأن كتاب إدوارد سعيد **القضية الفلسطينية**، تاريخاً سياسياً شاملاً يهدف إلى تدريس فلسطين وشرحها خارج حدود الأوساط الأكاديمية. يرسم الخالدي في الكتاب قصة تستهدف اختراق القرن الماضي الذي أمعن في نزع الأنسنة عن الفلسطينيين، بما في ذلك شيطنة المقاومة الفلسطينية، وبشكل أكثر تحديداً، محاولة النيل من السيادة الفلسطينية وإنكارها.

على امتداد المراحل التاريخية التي يصفها، يمنح الخالدي قارئ هذا الكتاب الأدوات التي يمكن من خلالها البدء في تفكيك الحاضر، مع إبقاء القارئ مدركاً بشكل دائم عدم الوقوع في أسر الحاضر. مستنداً إلى التحليل السياسي لفلسطين، يُعتبر الإطار الناظم لهذا الكتاب محاولة لاستكشاف كيفية فهم فلسطين و"إسرائيل" سياسياً، وذلك من خلال المراوحة بين مواقع السلطة الإمبريالية وشوارع التغيير الشعبية. وبما أن كل إعلان للحرب على فلسطين يزيد تضييق الخناق على الفلسطينيين، فهذا يجعل هدف السيادة يبدو مستحيلاً، وعليه، يصبح من الصعب عدم الوقوع في حالة من اليأس خلال تتبع التاريخ الخطِّي الذي يقدمه الخالدي. فهو إذ ينوس بين حقيقة التغيير وكابوس التكرار، فإنه يدعونا بوضوح إلى فهم أكثر دقة لفلسطين و"إسرائيل"، والفلسطينيين و"الإسرائيليين".

على نحو مغاير لمعظم أعماله السابقة، ينسج الخالدي في كتابه هذا حكايات شخصية وعائلية. يبدأ

بسيرة جده الرابع يوسف ضياء الدين باشا الخالدي، وهو سليل أسرة مقدسية عريقة من علماء المسلمين، وسياسي بارز تولّى العديد من المناصب الحكومية العثمانية، ومنها رئاسة بلدية القدس. يتخذ الخالدي من جده هذا إطاراً لكتابه، مستهلاً ذلك بالتراسل التاريخي المعروف بين يوسف ضياء الخالدي وثيودور هرتزل في العام 1899، ليبرز تفاصيل هذه المأساة التاريخية للفلسطينيين. ويبرز هذا التراسل كيف أن القادة العرب، مثل يوسف ضياء، وعلى الرغم من مكانته الاجتماعية وتعليمه ورغبته في الحوار مع الأوروبيين، بمن فيهم هرتزل، لم يؤخذوا على محمل الجد. يوجز الخالدي هذا الأمر قائلاً: "لقد تكرر هذا التقليل من شأن ذكاء، بل وحقوق، الشعب العربي الفلسطيني بشكل متواصل من قبل القادة الصهاينة والبريطانيين والأوروبيين والأمريكيين على مرِّ العقود التالية، وحتى يومنا هذا." كما يشير الخالدي إلى أن القادة الصهاينة ورعاتهم كانوا يدركون منذ البداية أن بناء دولتهم يقتضي إخلاء الأرض من سكانها.

يجادل الخالدي بأن عبث النفوذ السياسي الفعلي، كما ظهر في كل إعلان للحرب، من إعلان بلفور وحتى أواخر حقبة أوسلو، شكَّل إطاراً لكل ما تلاه. وعلى الرغم من وصفه الصهيونية بأنها تشبه الحركات الاستعمارية الأخرى في عصرها، إلا أنه يراها فريدة أيضاً باعتبارها "حركة قومية استعمارية متأخرة من القرن التاسع عشر... مزينة بعباءة توراتية لفتت انتباه البروتستانت الذين يقرأون **الكتاب المقدس** في بريطانيا العظمى والولايات المتحدة، ما أعمى أبصارهم عن حداثة الصهيونية وطبيعتها الاستعمارية". وعلى الرغم من نشأتها في بيئة إمبريالية، يشير الخالدي إلى أن العنصر القومي في الصهيونية أتاح للجانب الاستيطاني الاستعماري فيها التحوُّل إلى دولة قومية معترف بها ومدعومة من القوى العالمية. ويحاجج الخالدي أن قوة الصهيونية كحركة قومية، وإن كانت جذورها استعمارية استيطانية، إنما تتجلى في تمكُّن "إسرائيل" من السيطرة على الرواية وفرض تأثيرها القوي والمتواصل على الوطنية الفلسطينية. وفي المحصلة، فقد واجه الفلسطينيون ما يُعرِّفه الخالدي بأنه "حرب استعمارية ضد سكان أصليين، من قبل أطراف متنوعة، لإجبارهم على التنازل عن وطنهم لشعب آخر ضد إرادتهم". لقد كان هدف الصهيونية هو التدمير والاستبدال، كما هو الحال في جميع الحركات الاستعمارية الاستيطانية، ما يجعل فكرة الدولة الفلسطينية السيادية مستحيلة.

يغطي إعلان الحرب الأول (1917-1939) تاريخ حقبة الانتداب البريطاني وأسس حقبة الحرب الإمبريالية الجديدة التي انبثقت من الحرب العالمية الأولى. يبدأ الخالدي هنا، القول بأن آليات السيطرة وبنى السلطة القائمة اليوم قد تم استدخالها رسمياً في أواخر العهد العثماني، والحرب العالمية الأولى، والظهور اللاحق لنظام الانتداب الاستعماري. وبلغة واضحة، وفي مجال خبرته كمؤرخ ودبلوماسي وسياسي، [2] يظهر الخالدي تمكُّناً لافتاً في وصف السلطة البريطانية والنوايا الإمبريالية، بالإضافة إلى البراعة (أو انعدامها) عند اللاعبين المحليين على أرض فلسطين الذين اضطروا إلى مواجهة هذه المخاطر. علاوة على ذلك، يصف الخالدي بالتفصيل كيف استفاد الزعماء الصهاينة من الرعاية الإمبريالية في بناء دولتهم القومية. لم تتردد الإمبريالية البريطانية، ومن بعدها الأمريكية، عن الوفاء بالتزامها للصهيونية. وبتفنيد الأسطورة التي زعمت أن الفلسطينيين كانوا يجهلون هذه النوايا، يسجل الخالدي أيضاً معارضة الفلسطينيين. ومع أنه يقدم لنا خلاصة بليغة في فضح القوى

الإمبريالية، يقرأ الخالدي خريطة العالم حصرياً من خلال عدسة النظام الدولي والدول القومية التي أنتجها. وفي هذا المشهد السياسي، تُعرَّف السيادة من خلال الاعتراف الإمبريالي بدولة قومية، وبالتالي يُحصر سعي الفلسطينيين للتحرير في هذا النظام القائم على هذا الشكل من الدولة. ومن خلال التركيز على الشخصيات البارزة في الحقبتين العثمانية والاستعمارية الانتدابية البريطانية، وحتى رجال السلطة في منظمة التحرير الفلسطينية (م.ت.ف) في الحقب اللاحقة، يرسم الخالدي مسار المقاومة الفلسطينية، ولكنه يقرأها عبر عدسة نظام عالمي تحدِّده قوة الدولة. وإدراكاً منه لهذا التركيز على النخبة فيما يتعلق بالهوية والسياسة الفلسطينية، يقيم الخالدي الحجة بالقول إن "من الأصعب العثور على وجهة نظر الشرائح الأقل حظاً من المجتمع الفلسطيني. هناك القليل من التاريخ الشفهي المتوفر من العقود الأولى من الحكم البريطاني". وبما أن تركيز الخالدي انصبَّ على مواد المصادر التقليدية، فإنه يكشف بذلك عن معضلة المؤرخ السياسي التي ولدت من نفس القيود المنطقية للنظام العالمي الإمبريالي الذي يصفه طوال الوقت، والذي يضع الفلسطينيين وقراءتهم للثقافة والسياسة الفلسطينية في نفس الصندوق المحدود لعدم جدوى الاعتراف.

أما إعلان الحرب الثاني (1947-1948)، فلا يقتصر على حرب النكبة فحسب، بل يشمل أيضاً المناورة البارعة للزعماء الصهاينة الذين أدركوا تحوُّل النفوذ الإمبريالي من أوروبا إلى الولايات المتحدة. ففي وقت مبكر من العام 1942، وعبر برنامج بلتيمور، نقل الزعماء الصهاينة مساعيهم الإمبريالية إلى موقع جديد في الولايات المتحدة. وفي المقابل، يوضح الخالدي أن "الفلسطينيين لم يطوروا أجهزة لدولة وطنية حديثة". ومرةً أخرى، فإن هذا النقص في بناء المؤسسات هو نتاج للعنف الاستعماري الاستيطاني، ولكنه أيضاً نقد للقيادة الفلسطينية والعربية التي يعود إليها الخالدي على مدار هذا الكتاب. ووفقاً لما يطرحه، فإن "جهل أجيال متعاقبة من الحكام العرب بآليات النظام السياسي الأمريكي والسياسة الدولية من شأنه أن يحرم العالم العربي باستمرار من أي إمكانية لمقاومة النفوذ الأمريكي أو تشكيل السياسة الأمريكية". وسيؤدي هذا الجهل، والوسطاء الذين أنتجهم، إلى إصابة القادة العرب والفلسطينيين والمؤسسات التي يسيطرون عليها بالشلل لأجيال قادمة. وفي خضم مراحل حرب النكبة، وتنفيذ الخطة الصهيونية "دالت"، إلى جانب المجازر والطرد القسري للغالبية العظمى من الشعب الفلسطيني، ينقل الخالدي عن الرئيس الأمريكي هاري ترومان قوله: "يجب أن أجيب مئات الآلاف الذين يتوقون إلى نجاح الصهيونية، وليس لدي مئات الآلاف من العرب الناخبين". لقد كان الفلسطينيون محكومين بمواجهة واقع جديد، حيث تحوَّل غبار الحرب إلى نكبة مستمرة: إلى شتات جماعي من دون أي نوع من القيادة، إذ تراجعت النخب الفلسطينية والأنظمة العرب وحلت الهزيمة.

يوضح الخالدي، أن استخدام "العنف غير المتناسب" ضد الثورة الفلسطينية المسلحة، ومنذ أواخر الحقبة الانتدابية، قاد إلى المزيد من العنف الاستعماري الوحشي ضد الشعب الفلسطيني، وقد كانت حرب النكبة، والنكبة المستمرة، التجسيد الفعلي للعنف غير المتناسب من قبل الاستعمار الاستيطاني. كما يشير الخالدي إلى أن من يُسمَّون روَّاد الأيديولوجية الصهيونية والمهندسون العسكريون الأوائل للحركة كانوا على دراية تامة ويتحدثون بصراحة تامة عن دوافعهم الاستيطانية وما تنطوي عليه من عنف. ومن خلال تسليط الضوء على زئيف جابوتنسكي وتصوُّره لـ "الجدار الحديدي"، يوضح الخالدي

أن الصهاينة كانوا يعلمون ما يفعلونه وما أرادوا فعله، وهو استخدام القوة المستمرة لتحويل فلسطين إلى "أرض إسرائيل". بوضوح تام، لا غموض فيه، ودون اللجوء إلى أسطورة "طهارة الدوافع" أو "طهارة السلاح" (بعض أكاذيب الصهيونية الشهيرة)، ينوِّه الخالدي أيضاً إلى أن لجابوتنسكي إرثاً طويلاً في القيادة الصهيونية، ما يوصلنا، جزئياً، عبر كل إعلانات الحرب التي يصفها – ممهداً الطريق لمن يسيطر الآن على الدولة المستوطنين. وهنا، يبرز السؤال الأساس لأجيال من أصحاب الأرض: كيف يمكن للفلسطينيين المقاومة، في مواجهة هذه العدوانية الهائلة، المدعومة، والتي تم إعطاؤها الضوء الأخضر من قبل القوى الإمبريالية؟

استمرت المقاومة المسلحة على مدار العقود التالية، حيث يصف الخالدي "رفض الفلسطينيين الاستسلام... رغم أن العواقب كانت وخيمة". لقد استمرت هذه الآلية من العنف الاستعماري الإمبريالي المتواصل والمقاومة الفلسطينية عبر إعلانات الحرب المتعاقبة. ومع دخولنا للإعلان الثالث للحرب (1967)، نذهب مباشرة في الكتاب إلى حياة الخالدي في شوارع مدينة نيويورك. فبين هيمنة الرواية الصهيونية في الولايات المتحدة والدعم السياسي الكامل من حكومتها، حصلت "إسرائيل" على الضوء الأخضر للحرب. ووفقاً للخالدي، فقد أدت نتيجة الإعلان الثالث للحرب إلى محاصرة الفلسطينيين أكثر، "والفضل في ذلك جزئياً يعود إلى قرار مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة رقم 242، إذ أضيفت طبقة كاملة من النسيان والمحو وصناعة الأساطير إلى فقدان الذاكرة الإكراهي الذي طمس الأصول الاستعمارية للصراع بين الفلسطينيين والمستوطنين الصهاينة".

لقد كرَّست حرب العام 1967 السيطرة العسكرية الصهيونية في جميع أنحاء فلسطين وخارجها، كما شكَّلت نقطة تحوُّل في المقاومة الفلسطينية. هنا، يشير الخالدي إلى حقبة ما بعد العام 1967 (أي 1968-1982) على أنها "عودة الفلسطينيين،" وقد كانت وسيلة عودة الفلسطينيين إلى المشهد السياسي هي منظمة التحرير الفلسطينية بوصفها مظلة للأحزاب السياسية الفلسطينية وممثلة للشعب الفلسطيني. وهكذا، يقرأ الخالدي الإمكانيات المنسية لمنظمة التحرير الفلسطينية، من ميثاقها الوطني في العام 1968 إلى ظهورها كجسم تمثيلي أوجد مساحة رحبة للرواية الفلسطينية. يظلُّ هذا الفصل في التاريخ الفلسطيني ذا أهمية كبيرة للخالدي، على الرغم من نتائجه بعد إعلان الحرب الرابع في العام 1982.

وعلى الرغم من قيود المجتمع الدولي وتنامي قوة "إسرائيل"، يرى الخالدي أن منظمة التحرير الفلسطينية كانت تستطيع، بل كان ينبغي لها، تجسيد السيادة الفلسطينية، لولا ما سمَّاه "إجماع الحمقى" داخل المنظمة. وقد شكَّل تحليل الخالدي لمنظمة التحرير الفلسطينية وانهيارها أكثر أجزاء كتابه إثارة للجدل لدى القارئ الفلسطيني، محاولاً إعادة قراءة التاريخ الفلسطيني وتصحيح ما شوَّهته حقبة ما بعد العام 1993، مع حنين نقدي لما كان ممكناً وانتقاد لاذع لقيادة منظمة التحرير الفلسطينية والسلطة الفلسطينية التي خلفتها. وكما هو الحال في دراساته السابقة، يركز الخالدي على القيادة السياسية، إذ على الرغم من احتفائه بالانتفاضة الأولى (الحجارة) وانتقاده للانتفاضة الثانية (الأقصى)، إلا أنه يغفل الجوانب الاجتماعية والثقافية. لذا، وعلى الرغم من أهمية نقده للقيادة، يتساءل القارئ: كيف أثَّر تركيزه على السياسة من منظور القيادات السياسية

في فهمه للمقاومة الفلسطينية؟ ذلك أن التاريخ الاجتماعي والثقافي لا يحظيان بالوزن الكافي في تحليله. والسؤال هنا: ما الذي يفوّته هذا التحليل بتركيزه بشكل حصري على دور النخب؟ فمن الثورة إلى الكفاح المسلح، إلى الانتفاضتين، إلى الطوفان، يمكن اعتبار التاريخ الفلسطيني سلسلة من المقاومة المستمرة. فهل يعيق تركيز الخالدي على القيادة، التي أحياناً قادت وأحياناً أخرى دمَّرت المقاومة، فهمه لعمق تاريخ هذه المقاومة؟

لقد قاوم الفلسطينيون منذ الأيام الأولى للاحتلال العسكري وحتى تبنِّي منظمة التحرير الفلسطينية الكفاح المسلح، وصولاً إلى طوفان الأقصى. وعلى الرغم من ازدياد عنف الاستعمار بشاعة مع تعاقب إعلان الحروب ومن ضآلة المساحة المتاحة للفلسطينيين في النظام العالمي الجديد، المبني منذ نشأته على محو الوجود الأصلاني، يواصل الفلسطينيون المقاومة. وكما يلاحظ الخالدي محقاً، يواصل الفلسطينيون أيضاً تحمل أفظع العواقب، وهي عنف انتقام المستوطنين. وعلى ما يبدو أن الخالدي يفهم، ويعرب عن أسفه في الوقت نفسه، لاستمرار المقاومة الفلسطينية. وفي هذا النقد، يكشف لنا الخالدي بشكل مبطن عن معضلة خاصة به: فالنضال والعمل السياسي بالنسبة للخالدي مرتبطان برحلة نحو الاعتراف من قبل "الإمبراطورية" التي طمست تاريخه.

وبين العنف الاستعماري ومقاومة المحو، نجد أعمال تمرد وثورات على امتداد فصول الكتاب عن تاريخ الدمار لفلسطين والفلسطينيين. ولعل هذا هو ما يفضي إلى المعضلة المفاهيمية والتاريخية التي يخرج بها القارئ من هذا الكتاب: لماذا يُدفن تاريخ الثورة والتمرد غالباً في قصة البحث عن الاعتراف؟ يقدِّم نقد الخالدي للمؤسسات طريقة للتعامل مع هذا السؤال، إذ استفادت المؤسسات، من الهيئة العربية العليا إلى منظمة التحرير الفلسطينية، من أمل التحرر والعمل الذي ينطوي عليه ذلك. وقد كانت هذه المؤسسات نفسها مختبراً تاريخياً ومعاصراً للرداءة. ومرة أخرى، إذا عملنا على فهم هذا التناقض من الناحيتين الاجتماعية والثقافية، كيف يمكننا إضافة عمق ودقة أوسع إلى تحليل الخالدي؟ إن قراءة هذا الكتاب في العام 2025 هي دعوة للتفكير في إعلانات حرب أخرى، أكثر وحشية وأعمال إبادة جماعية وتصفية. وإن تتبع مسار السلطة والمقاومة على مدى قرن من الزمان يترك القارئ أمام تناقض حي يشكل علم التاريخ. وسواء كان هذا التناقض قاتماً أم مفعماً بالأمل، يشدد الخالدي على أن التاريخ مهم، ولا يمكننا أن نكون أسرى للحاضر ◆

إحالات

[1] استخدمت النسخة الصادرة باللغة الإنجليزية من الكتاب لإنجاز هذه المراجعة.
Rashid Khalidi, *The Hundred Years' War on Palestine: A History of Settler Colonialism and Resistance, 1917–2017* (New York: Metropolitan Books, 2020).

[2] كان رشيد الخالدي أحد مستشاري الوفد الفلسطيني المشارك في مفاوضات مدريد وواشنطن السابقة لاتفاقية أوسلو، بين عامي 1991 و1993 (المحرر).